مسائل في الإعجاز

د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

لقد ادخر القرآن الكريم كثيرا من الآيات للأجيال في عبارات معلومة الألفاظ لكن الكيفيات والحقائق لا تتجلى إلا حينا بعد حين، يقول تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص ٨٧و٨٨، وقد فسر الطبري معنى الحين بقوله: "فلا قول فيه أصح من أن يطلق كما أطلقه الله من غير حصر ذلك على وقت دون وقت"[١]، فلكل نبأ في القرآن زمن يتحقق فيه فإذا تجلى الحدث ماثلا للعيان أشرقت المعاني وتطابقت دلالات الألفاظ والتراكيب مع الحقائق، وهكذا تتجدد معجزة القرآن على طول الزمان، يقول العلي القدير: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنعام ٦٦و٦٧، ونقل ابن كثير عن ابن عباس تفسيره للمستقر بقوله: "لكل نبأ حقيقة أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين"، وقد تردد هذا الوعد كثيرا في القرآن الكريم بأساليب متعددة كما في قوله تعالى ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ القيامة ١٩، وقوله ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ فصلت ٥٣، وقوله ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ النمل ٩٣، قال ابن حجر: "ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وفي بلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه"[٢]، قال محمد رشيد رضا: "ومن دلائل إعجاز القرآن أنه يبين الحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيرون في فهمها والاستفادة منها مجملة وإن كان فهم ما وراءها من التفصيل الذي يعلمه ولا يعلمونه يتوقف على ترقي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك"، وقال جوهري: "أما قولك كيف عميت هذه الحقائق على كثير من أسلافنا؟، فاعلم أن الله هو الذي قال ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وقال ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، إن الله لا يخلق الأمور إلا في أوقاتها المناسبة وهذا الزمان هو أنسب الأزمنة"[٣]، "والمدار على الفهم والفهم في كل زمان بحسبه وهذا زمان انكشاف بعض الحقائق"[٤]. وفي قوله تعالى ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء ٣٧ قال ابن عاشور: "وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين"، وهي كما قال الرازي: "أدلة التوحيد وصدق الرسول ﷺ ولذلك قال سبحانه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها"، واستعجال المنكرين يعني كما قال الشيخ طنطاوي: "استبعاد ما جاء في هذه الآيات من الأمور العلمية التي أوضحها علماء العصر الحاضر فهم يستبعدونها طبعا لأنهم لا يعقلونها فقال الله تعالى لا تستبعدوا أيها الناس ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فإذا لم تفهمها أمم سابقة.. سيعرفها من بعدهم فقد ادخرنا هذه الأمور لأمم ستأتي لتكون لهم آية علمية على صدقك فتكون الآيات دائما متجددة"، قال محمد رشيد: "والكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعا وهو من فروض الكفاية وقد تكلم فيه المفسرون والمتكلمون فإن كان ذلك قد وفى بحاجة (تلك) الأزمنة.. فهو لا يفي بحاجة هذا الزمان إذ هي داعية إلى قول أجمع وبيان أوسع وبرهان أنصع في أسلوب أجذب للقلب وأخلب للب وأصغى للأسماع وأدنى إلى الإقناع"[٥]، هذا ما قاله المحققون ولكنه لا يعني تعريض كتاب الله للمؤاخذة بسوء فهم للنصوص وتحريفها عن دلالتها لتلتقي مع حقيقة علمية أو الانتصار لفرضية لم تؤيدها الوقائع بعد لتلتقي مع دلالة نصية أو استنباطية، تلك هي أهم أصول التحقيق، والله تعالى أعلم.

مثال في هذا العصر على طريقة "أنا لا أكذب على رسول الله بل أكذب له": كتاب الدكتور عبد الباسط محمد السيد اسمه "الطب الوقائي من القرآن والسنة"، وقد صدرت منه الطبعة الأولى عام ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار ألفا مصر: alfa_eg@hotmail.com، ولم تقم أي جهة مسئولة مثل هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

برابطة العالم الإسلامي بتحقيقه، وقد وردت فيه أمور تستدعي التوقف، مثل قوله (ص٥٩): "لقد أخذ كيث مور عينات من نطفة لم تبلغ ٤٢ ليلة وحاول معرفة جنسها؛ ذكر أم أنثى، واستخدم كل وسائل التكبير والأشعة المتاحة فلم يستطع أبداً تحديد جنس النطفة، وظل يراقب النطفة طوال ٤٢ ليلة حيث ظهر كروموزوم جنس الجنين في اللحظات الأخيرة.. وعندئذ نطق بالشهادتين وأشهر إسلامه"، وهذا الأسلوب الدعائي في صورة رواية غير منسوبة لأحد ينبذه التحقيق العلمي، خاصة أن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة هي التي قامت بنفسها بمحاورة أستاذ الأجنة الكندي وتعرف حقيقة ما حدث من وقائع، والكاتب يقدم الحدث في صورة خبر باعتباره معاينا للوقائع ولكن الكاتب لم يكن حاضرا مع الهيئة في أي لقاء معه، وهل يعذر الكاتب عدم تخصصه في الطب ليقرر ظهور كروموزوم جنسي في اللحظات الأخيرة بعد ٤٢ ليلة خاصة مع توفر من يفيده بيقين بأن حوامل الخصائص الوراثية (الكروموزومات) لا تظهر فجأة بعد ٤٢ ليلة وإنما توجد جميعا داخل الخلية البشرية الأولى؟، ولكن هذا مصير من يعدل عن التحقيق العلمي مهما كان غرضه، ومن ذلك قوله (ص٦١): "عملية انتخاب طبيعي للحيوان المنوي وللبويضة الأقوى والأصلح"، وهي ليست إلا بويضة واحدة، وقوله (٦٢): "وقد أثبت كيث مور أن كل السوائل في جسم الإنسان علق، فلو أخذ قليل من الدم ثم ترك ساكناً فإن كرات الدم الحمراء والبيضاء تترسب.. أي أن الدم علق"، هكذا!، وقوله (ص ٦٥): "أما عن ترائب المرأة أي عظام صدرها فقد أثبت العالم كيث مور أن هذه العظام تصل للمبيض الذي تنتج فيه البويضات، وهنا خر العالم الكندي ساجدا لله"، ويقع المبيض في تجويف الحوض وليس له أي علاقة تشريحية بعظام الصدر، وهو أيضا يأتي بروايات لا ينسبها لأي كتاب من أمهات كتب الحديث ولا يورد تحقيقها (مثلما في ص٥٩و٦٤)، ولكنه لم يورد رواية السائل في كتابه ولم أجدها في كتب الحديث، وفي الجملة لم يُنسج الكتاب على طريقة المختصين في التحقيق وإنما كمرئيات شخصية، والله تعالى أعلم.

نموذج لا يختلف عليه اثنان في سبق القرآن إلى حقائق كشفها الزمان: القرآن الكريم كتاب هداية إلى الإيمان بالله تعالى وليس صنعة بشرية تغرض إلى الاختراع والإبداع التقني، ومهمته تصحيح اعتقادات دخيلة على منهج رسل الله –عليهم السلام- في التأكيد على وحدانيته، هذا هو الغرض الرئيس من الدعوة إلى التطلع في الكون نحو بينات صدق القرآن ودلائل عظمة الله ووحدانيته والتي يبلغ بها الإنسان درجة اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يونس ١٠١، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ولكن الدعوة إلى التطلع في الكون والتأمل وإعمال الفكر والاستنباط قد وضعت الأساس للمنهج التجريبي فكان من ثمرتها أن حفزت الهمم وشحذت العقول لبناء صرح حضارة عالمية مازالت مفردات مصطلحاتها مستعملة إلى اليوم في علوم كالفلك والجبر والكيمياء في الوقت الذي كانت أوروبا تتخبط فيه في ظلمات الجهل والوهم. ولم تكن البيئة التي نزل فيها الوحي مهيأة لتلقي حقائق لم تتحقق منها البشرية إلا بعد عصر التنزيل بقرون، ولذا كانت الإشارات العلمية في الحديث النبوي محدودة بينما فاض بها القرآن الكريم، وادخرت تلك الإشارات العلمية لأجيال قادمة تعاين حقائقها بينة على الوحي وتأييدا لرسالة التوحيد، وقد شفعت بوعد جازم نراه يتحقق اليوم، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِيَ أَنفُسِهِمْ حَتَّىَ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، وإسناد الرؤية للمؤمنين وإلى غيرهم يعني أن الوعد متحقق سواء اكتشفوا هم الحقيقة أم سبقهم إليها غيرهم، فلا مجال إذن للسؤال الذي يخلط بين التدليل على التنزيل عند تجلي الحقيقة والتبشير بها قبل اكتشافها في الواقع: لماذا ينتظر المسلمون غيرهم ليكتشفوا هم الحقائق العلمية ثم يدركون إشارة نصوص الوحي إليها بعد ذلك؟، ومع ذلك يمكن استلهام النصوص والاسترشاد بقواطع الدلالات للتبشير بالحقيقة التي لم يقم عليها دليل بعد. ومن الإشارات إلى معالم عصر التقنية التبشير بوسائل نقل تماثل الدواب المعتاد استخدامها زمن التنزيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىَ بَلَدٍ لّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاّ بِشِقّ الأَنفُسِ

إِنّ رَبّكُمْ لَرَؤُوفٌ رّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٥-٩]، فالشاهد قوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وذلك في معرض الحديث عن وسائل نقل معتادة ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، وفعل ﴿يَخْلُقُ﴾ مضارع يدل على التجدد مما لا يجعل حدًا لما ستكشفه الأيام من وسائل نقل، ولكن عندما تسترخي على كرسيك اليوم في سيارة أو باخرة أو طائرة تذكر أنك تجلس فوق دليل يشهد للقرآن بالوحي. قال المراغي: "﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ مما يهدي إليه العلم وتستنبطه العقول كالقُطُر البرية والبحرية والطائرات التي تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر والمطاود الهوائية التي تسير في الجو والغواصات التي تجري تحت الماء؛ إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير في الركوب والزينة" . وقال ابن عاشور: "الذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه..، وارتال السكك الحديدية والسيارات.. ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفّى..، فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها، وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكلّ من نعمته" . وقال الشنقيطي: "قوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية كالطائرات والقطارات والسيارات، ويؤيد ذلك إشارة النبي r إلى ذلك، في الحديث الصحيح قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه.. عن أبي هريرة –رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله r "والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها".. الحديث، ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح ـ قوله ﷺ: "ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها" فإنه قسم من النبي –ﷺ- أنه ستترك الإبل فلا يسعى عليها، وهذا مُشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة، وفي هذا الحديث معجزة عظمى تدل على صحة نبوته –ﷺ- وإن كانت معجزاته صلوات الله عليه وسلامه أكثر من أن تحصر" ، وقال الألوسي: "والعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد.. فما لا تعلمون على ظاهره" ، وقال الزركشي: "أما الموصوفات.. فإنك تبدأ بالأفضل فتقول قام الأمير ونائبه وكاتبه.. فقدم الخيل لأنها أحمد وأفضل من البغال وقدم البغال على الحمير لذلك أيضا" .

والحديث في كتاب الله عن الحضارات التي سادت على الأرض وبادت قبل نزوله ورد بصيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأرْضِ﴾ [هود:٢٠]، ولم يتواجد أحد منهم بالفعل قبل عصر الفضاء إلا في الأرض، ولكن مع الالتفات نحو حضارات المستقبل المخاطبين بالقرآن إلى قيام الساعة لم يُحصر تواجدهم في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٢٢]، وتلك الإضافة المبهرة المميزة لحضارات المستقبل ﴿وَلاَ فِي السّمَآءِ﴾ قد كشفت معناها الثورة العلمية المحمومة التي نعيشها اليوم في عصر الفضاء لتشهد بأن هذا القرآن وحي من عند رب الأرض والسماء؛ وإلا من أين لمحمد r منذ قرون وهو الأمي في أمة أمية هذا النبأ قبل عصر الفضاء!، هكذا تتجلى اليوم وتشع بأنوار اليقين بينات القرآن الكريم، يقول العلي القدير: ﴿وَكَذّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقّ قُل لّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لّكُلّ نَبَإٍ مّسْتَقَرّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٦٦و٦٧].

نموذج من التشكيك في إعجاز القرآن من غير المسلمين: قالوا كل ما ذكره القرآن من حقائق علمية مأخوذ من الكتب السابقة المنسوبة للوحي، والجواب هو: ليس نادرا أن يوجد من يعمل على وأد الحقيقة عن إدراك التزاما بموروث الآباء حتى لو شابه التناقض وعابه الخلل، ولكن النادر أن ينبري محقق للنقد الموضوعي والاعتراف بالحقيقة وإن خالفت الإرث الطائفي، وفي يقظة جريئة بين ركام التقليد اعترف المحقق الفرنسي موريس بوكاي

بسبق القرآن الكريم في تسجيل كثير من الحقائق في ميادين علمية مختلفة بلا خطا واحد بينما لم تثبت المدونات التي تنسب للوحي للنقد العلمي، وهكذا نال بكتابه "القرآن والإنجيل في ضوء العلم الحديث" شهرة واسعة ورفعه صدقه وجرأته إلى مصاف الأعلام. وفي التماعة لا تخلو من جرأة كذلك في كتاب "دليل إلى قراءة الكتاب المقدس" المنشور في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٨٢ والمطبوع بالعربية في بيروت ؛ كتب المحقق الفرنسي الأب أسطفان شربنتييه قائلا: "إن الكتاب المقدس لا سيما العهد القديم كتاب محير، نعلم قبل أن نفتحه أنه الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين ونتوقع أن نجد فيه كلام الله غير ممزوج بأي شيء.. وعندما نفتحه نجد فيه قصصا من ماضي شعب صغير، قصصا كثيرا ما تكون لا فائدة فيها، وروايات لا نستطيع أن نقرأها بصوت مرتفع دون أن نخجل؛ وحروبا واعتداءات، وقصائد لا تحملنا على الصلاة وإن سميناها مزامير، وفضائح أخلاقية قديمة تخطاها الزمن وكثيرا ما هي مبغضة للنساء" ص ٨، "وكذلك فإن أسفار الكتاب المقدس كثيرا ما تبدو لنا مبتذلة ولا فائدة لها" ص ٨، وفي الحقيقة قد شارك الكاتب في فضل جرأة الاعتراف عدد من أعلام الطائفة هم المترجم: الأب صبحي حموي اليسوعي، والمقدم الأب أنطوان أودو اليسوعي أستاذ الكتاب المقدس بجامعة القديس يوسف في بيروت، والموافق على النشر النائب الرسولي: بولس باسيم، وما يهمنا في أقوال الأب أسطفان شربنتييه فيما يتعلق بالجوانب العلمية عامة أو الحقائق التي فاض بها القرآن الكريم هو اعترافه بجرأة قائلا: "قد نجد في الكتاب المقدس كثيرا من الأمور غير المطابقة للواقع" ص٩، ولو تناول أي إنسان يرغب في معرفة الحقيقة جميع ما ينسب للوحي من مدونات تسبق القرآن فلن يجد شيئا خاصة في مجال علم الأجنة؛ فمن أين إذن ذلك الفيض غير المسبوق من الحقائق العلمية في القرآن الكريم قبل أن يبزغ عصر الكشوف العلمية بأكثر من عشرة قرون إذا كان ما يسبقه ناقص ومغلوط!.

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي: التفسير العلمي هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية أما الإعجاز العلمي : فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول(ﷺ). وهكذا يظهر اشتمال القرآن أو الحديث على الحقيقة الكونية التي يؤول (يصير وينتهي) إليها معنى الآية أو الحديث ويشاهد الناس مصداقها في الكون فيستقر عندها التفسير ويعلم بها التأويل كما قال تعالى :(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) [الانعام : ٦٧] وقد تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً وعمقاً وشمولاً لأن الرسول(ﷺ) قد اوتي جوامع الكلم ، فيزداد بها الإعجاز عمقاً وشمولاً ، كما تزداد السنة الكونية وضوحا بكثرة شواهدها المندرجة تحت حكمها.

قواعد وأسس أبحاث الإعجاز العلمي: تقوم الأبحاث في الإعجاز العلمي على قواعد يمكن إيجازها فيما يلي:
علم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ، ولا يشوبه نقص ، وعلم الإنسان محدود ويقبل الازدياد ومعرض للخطأ. هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة،● كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية. في الوحي نصوص ظنية في دلالتها ، وفى● العلم نظريات ظنية في ثبوتها. لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي ، فإن وقع في الظاهر ، فلابد أن هناك خللا في اعتبار قطعية أحدهما وهذه قاعدة جليلة قررها علماء المسلمين وقد آلف ابوالعباس ابن تيمية كتاباً من أحد عشر مجلداً لبيانها تحت عنوان :(درء تعارض العقل والنقل). عندما يرى الله عباده آية من آياته في الآفاق أو في الأنفس مصدقة لآية في كتابه، أو حديث من أحاديث رسوله(ﷺ) يتضح المعنى ، ويكتمل التوافق ويستقر التفسير، وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص بما كشف من حقائق علمية وهذا هو الإعجاز. أن نصوص الوحي● قد نزلت بألفاظ جامعة فقد قال(صلى الله عليه وسلم) :" بعثت بجوامع الكلم"((أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى)) مما يدل على أن النصوص التي وردت عن النبي(ﷺ) تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيلاً بعد جيل. إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت● هذه النظرية لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شئ علماً. وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية وإذا كان النص ظنياً

والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها. وإذا وقع التعارض بين حقيقة علمية قطعية، وبين حديث ظني في ثبوته ،● فيؤول الظني من الحديث ليتفق مع الحقيقة القطعية وحيث لا يوجد مجال للتوفيق فيقدم القطعي.

منهجية أبحاث الإعجاز العلمي في ضوء منهج السلف وكلام المفسرين:

للسلف منهج سديد فيما يتعلق بأمر الصفات الإلهية وأحوال يوم القيامة● وما لا سبيل إليه من غير طريق الوحي ويتمثل هذا المنهج في الوقوف على ما دلت عليه النصوص بدون تكلف لمعرفة الكيفيات والتفاصيل التي لم يبينها الوحي لأن البحث فيها كالبحث في الظلام.

وكلام الخالق سبحانه عن أسرار خلقه في الآفاق وفى الأنفس● غيب قبل أن يرينا الله حقائق تلك الأسرار ولا طريق لمعرفة كيفياتها وتفاصيلها قبل رؤيتها، إلا ما سمعنا عن طريق الوحي.وكان السلف لا يتكلفون ما لا علم لهم بها حيث كانت بعض الآيات المتعلقة بالأمور الغيبية ودلالتها اللغوية معلومة ولكن الكيفيات والتفاصيل محجوبةإن من وصف حقائق الوحي الكونية بدقائقها وتفاصيلها● بعد أن كشفها الله وجلاّها للأعين غير من وصفها من خلال نص يسمع، ولا يرى مدلوله الواقعي لأن وصف من سمع وشاهد غير من سمع فقط. ولقد وفق السلف الصالح من● المفسرين كثيراً في شرحهم لمعنى الآيات القرآنية رغم احتجاب حقائقها الكونية ، مع أن المفسر الذي يصف حقائق وكيفيات الآيات الكونية في الآفاق والأنفس وهي محجوبة عن الرؤية في عصره قياساً على ما يرى من المخلوقات وفى ضوء ما سمع من الوحي ، يختلف عن المفسر الذي كشفت أمامه الآية الكونية فجمع بين ما سمع من الوحي وبين ما شاهد في الواقع. ونظراً لعدم خطورة ما يتقرر في مجال الأمور الكونية على أمر العقيدة يوم ذاك لم يقف المفسرون بها عند حدود ما دلت عليه النصوص بل حاولوا شرحها بما يسر الله لهم من الدراية التي تيسرت لهم في عصورهم وبما فتح الله به عليهم من إفهام ، وكانت تلك الجهود العظيمة التي بذلها المفسرون عبر القرون ، لشرح نصوص الوحي● المتعلقة بالأمور الكونية - التي لم تكشف في عصرهم - مبينة لمستوى ما وصل إليه الإنسان من علم ، في تلك المجالات ومبينة لمدى توفيق الله لهؤلاء المفسرين فإذا ما حان حين مشاهدة الحقيقة في واقعها الكونى ظهر التوافق الجلى بين ما قرره الوحي وما شاهدته الأعين وظهرت حدود المعارف الإنسانية المقيدة بقيود الحس المحدود والعلم البشرى المحدود بالزمان والمكان وازداد الإعجاز تجلياً وظهوراً. وكتب الله التوفيق للمفسرين فيما شرحوه من آيات وأحاديث متعلقة بأسرار الأرض والسماء بفضل اهتدائهم بنصوص الوحي المنزل ممن يعلم السر في الأرض والسماء ، ومسترشدين بما علم لهم من دلالات الألفاظ ومعاني الآيات.

أوجه الإعجاز العلمي :وتتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فيما يلي :

١- التوافق الدقيق بين ما في نصوص الكتاب والسنة ، وبين ما كشفه علماء الكون أمثال البروفسور كيث ل . مور وهومن أشهر علماء العالم في علم الأجنة وكتابة في علم الأجنة مرجع عالمى مترجم إلى سبع لغات منها الروسية واليابانية والصينية والذي جاء بعد اقتناعه بأبحاث الإعجاز العلمي ألقى محاضرة في ثلاث كليات طبية بالمملكة العربية السعودية عام (١٤٠٤هـ)بعنوان (مطابقة علم الاجنّة لما في القرآن والسنة) من حقائق كونية وأسرار كونية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن.

٢- تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية في اجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق مثل ما كان شائعاً بين علماء التشريح من أن الولد يتكون من دم الحيض واستمر ذلك الاعتقاد إلى أن اكتشف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي بينما نصوص القرآن والسنة تقرر أن الولد يتكون من المنى وقد رد علماء المسلمين من أمثال الأمام ابن القيم والأمام ابن حجر وغيرهم أقوال علماء التشريح في عصورهم بنصوص

الوحي وذلك مثل ما قاله ابن حجر وزعم كثير من أهل التشريح أن منى الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده وأنه إنما يتكون من دم الحيض وأحاديث الباب تبطل ذلك(الفتح : ١٤٨٠/١١).

٣- إذا جمعت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر فتتجلى بها الحقيقة مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقه في الزمن وفى مواضعها من الكتاب الكريم وهذا لا يكون إلا من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

٤- سن التشريعات الحكيمة التي قد تخفى حكمتها على الناس وقت نزول القرآن وتكشفها أبحاث العلماء في شتى المجالات مثلما كشفه العلم حديثاً من الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير والاعتزال المقصور على الجماع في المحيض ويسألونك عن المحيض{ قل هو أذى آفاعة النساء في المحيض} (البقرة:٢٢٢).

٥- عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره على كثرتها ، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، مع وجود الصدام الكثير بين ما يقوله علماء الكون من نظريات تتبدل مع تقدم الاكتشافات ووجود الصدام بين العلم وبين ما قررته سائر الأديان المحرفة والمبدلة .

٦- تنبيه وكلامنا هنا محصور في قضايا الإعجاز العلمي الذي تسفر فيه النصوص عن معاني لكيفيات وتفاصيل جديدة عبر العصور أما ما يتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فقد بينها رسول الله ﷺ ووضح تفسيرها. إن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية . ومرفوض إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية . ومرفوض إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً . وهو مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضع أخر أو دل عليه صحيح السنة . وهو مقبول بعد ذلك إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة ، وحدود الشريعة والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله.مقبول ممن رزقه الله علماً بالقرآن وعلماً بالسنن الكونية لا من كل من هب ودب فكتاب الله اعظم من ذلك.

أهمية أبحاث الإعجاز العلمي وثمارها:

١- امتداد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية . إذا كان المعاصرون لرسول الله قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات ، فإن الله أرى أهل هذا العصر معجزة لرسوله تتناسب مع عصرهم ، ويتبين لهم بها أن القرآن حق ، وتلك البينة المعجزة هي : بينة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، وأهل عصرنا لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم.

٢- تصحيح مسار العلم التجريبي . لقد جعل الله النظر في المخلوقات ، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقاً إلى الإيمان به ، وطريقاً إلى الإيمان برسوله ولكن أهل الأديان المحرفة كذبوا حقائقه ، وسفهوا طرقه ، واضطهدوا دعاته ، فواجههم حملة هذه العلوم التجريبية ، بإعلان الحرب على تلك الأديان ، فكشفوا ما فيها من أباطيل ، وأصبحت البشرية في متاهة ، تبحث عن الدين الحق ، الذي يدعو إلى العلم ، والعلم يدعو إليه . أن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم ، ووضعه في مكانه الصحيح ، طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله ، ومصدقاً بما في القرآن ، ودليلاً على الإسلام .

٣- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية ، بدوافع إيمانية. أن التفكير في مخلوقات الله عبادة ، والتفكير في معاني الآيات والأحاديث عبادة ، وتقديمها للناس دعوة إلى الله . وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وهذا من شأنه أن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات . وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الخالق عن أسرار مخلوقاته ، أدلة تهديهم أثناء سيرهم في أبحاثهم ، تقرب لهم النتائج ، وتوفر لهم الجهود. واجب المسلمين إذا علمنا أهمية هذه الأبحاث في تقوية إيمان المؤمنين ، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب

العلم . عن بلاد المسلمين ، وفى دعوة غير المسلمين ، وفى فهم ما خوطبنا به في القرآن والسنة ، وفى حفز المسلمين للاخذ بأسباب النهضة العلمية ، تبين من ذلك كله أن القيام بهذه الأبحاث من أهم فروض الكفآيات . وصدق الله القائل : " { لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة } (البينة :١)

معنى الإعجاز ونشأته: القرآن الكريم هو معجزة النبي ﷺ الخالدة . وقد عرف العلماء المعجزة لغة : وهي إثبات العجز والضعف والتعجيز: التثبيط (١) . واصطلاحاً : أمر خارق للعادة ، مقروناً بالتحدي سالم من المعارضة وهي:إما حسية أو عقلية . وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لانحصار تفكيرهم بالمادة وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة – خصت بالمعجزة العقلية الباقية – وهي القرآن ليراها ذوو البصائر . وإن معجزات الأنبياء انتهت بانقضاء أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء من إعجازاته و إخباراته مما يدل على صحة دعواه (٢) . وقد عرف العلماء الإعجاز بقولهم : إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله -من كل وجوه الإعجاز سواء البيانية أو الإخبار بالمغيبات أو غيرها- وهو في اللغة : إثبات العجز وإظهاره .

نشأة مصطلح إعجاز القرآن: لقد كان الذوق العربي السليم يساعد أصحابه على إدراك الأساليب القرآنية في مخاطباته ، وكانت قدسية القرآن وعظمته مسيطرة على نفوسهم ، وكان الإقرار بالعجز عن الارتفاع إلى مستواه كامنا في النفوس . وبقي هذا الأمر بعد عصر النبوة والخلفاء الراشدين وردحا من الزمن في الدولة الأموية ، إلا أن صفاء السليقة العربية بدأت تفقد رونقها ، وبدأت الثقافات الفارسية واليونانية تأخذ طريقها إلى المجتمع الإسلامي على يد أبناء الأمصار التي فتحها المسلمون وأخذ الناس يفكرون بطريقة عقلية مجردة عن التذوق الجميل لأساليب القرآن وإدراك المعاني بالطريقة الصافية. ولم يبرز مصطلح إعجاز القرآن على الساحة إلا في القرن الثاني الهجري حيث كانت البصرة تموج بالتيارات الفكرية المختلطة ولعل أول من تولى الرد على المعتزلة وألف في ذلك هو الجاحظ في كتابه – نظم القرآن – (٣) ثم نهج الأدباء الذين جاؤوا بعده نهجه .

الغاية من الإعجاز: ليس المقصود بالإعجاز إثبات العجز للخلق لذاته ، من غير ترتبِ مطلبٍ على هذا العجز ، بل المقصودُ لازمُ هذا الإعجاز وهو : إقامة الحجة على أن هذا الإدعاء حق وأن الرسول الذّي جاء به رسولُ صدقٍ ، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر ، لحكمةٍ عالية وهي : إرشادهم إلى تصديق من جاء به ليسعد في الدنيا والآخرة .

الحكمة في صرف كفار مكة عن المعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم: طالب كفار مكة بمعجزات مادية ولكن الله لم يستجب لمطالبهم وأعطاهم معجزة القرآن التي تتجدد بتجدد الزمان وذلك لحكم جلية نذكر منها :

الحكمة الأولى : لأنهم غير جادين بهذه المطالب ولو لبيت لهم لما آمنوا لأن مقصدهم هو التعجيز كما أشارت الآية الكريمة: { ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون } (٤) فمن العبث عندئذ إتباع أهوائهم ورغباتهم { ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض } ، ولو أجيبوا إلى مطالبهم من المعجزات المادية الباهرة القاهرة ثم نكصوا على أعقابهم وكفروا فقد جرت سنة الله أن يعذبهم في الدنيا والآخرة .

الحكمة الثانية : إظهار مكانة القرآن الكريم وأن المعجزات المادية تتضاءل بجانب معجزته فهي المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة (٥) .

الحكمة الثالثة : أن الله عز وجل قد استجاب لمطالبهم ولكن بشيء أعلى وأسمى فهم يطلبون الذي هو أدنى فأعطاهم الله ما هو خير و أعلى : معجزة خالدة باقية هي القرآن الكريم لا تنقضي بانقضاء عصرهم لكنها تبقى

حتى يراها من بعدهم فيتبين لهم أنه الحق . جوانب الإعجاز في القرآن الكريم: لو نصت آيات الذكر الحكيم على وجوه الإعجاز لكفر جاحدها أو الشاك فيها هذا ومن رحمة الله تعالى بنا أن القرآن الكريم لم يتركنا في حيرة بل وجهنا في الآية بعد الآية إلى تدبر مواطن الإعجاز التي تقود إلى إدراك مالا يتناهى فيرى كل متدبر حسب سلامة فطرته وقوة بصيرته فقد يدرك الباحث وجها من وجوه الإعجاز بينما يدرك أهل عصر مالا يدركه غيرهم في عصر آخر (٦) .

ومن أهم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم :

١. الإعجاز اللغوي وينقسم إلى : الإعجاز البياني و الإعجاز بالنظم و الإعجاز الصوتي و حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحتها .

٢. الإعجاز الغيبي وينقسم إلى ثلاثة أقسام على حسب عصر النبوة : غيب الماضي وغيب الحاضر، وهو عصر النبوة، وغيب المستقبل .

٣. الإعجاز التشريعي .

١. الإعجاز العلمي وينقسم إلى ثلاثة أقسام : الإعجاز الكوني والإعجاز الطبي والإعجاز العددي .

٢. كونه محفوظا من الزيادة والنقصان محروسا عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان. وسيأتي الحديث عنها مفصلا إن شاء الله تعالى .

ضوابط في مبحث الإعجاز العلمي :

لابد في مبحث الإعجاز العلمي من ضوابط حتى لا يحمّل كلام الله معاني لا يحتملها ومن أهم هذه الضوابط :

١. القرآن كتاب هداية وليس المراد منه الإفاضة في العلوم الكونية أو الإنسانية أو الحيوانية أو غير ذلك .

٢. ترك الإفراط والتفريط فتتقيد بالمنهج القرآني ولا تحمل النص مالا يحتمل .

٣. مرونة الأسلوب القرآني فينبغي أن نعلم أنه يقبل عدة وجوه للتفسير فلا تلزم الآية أحد وجوه تفسيرها .

٤. الحقائق العلمية مناط الاستدلال فلا نفسر الآية بالنظريات .

٥. عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة .

٦. استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية .

٧. إتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة (٧) .

هل كلام الله في غير القرآن معجز :

إن القرآن الكريم قد تفرد بالإعجاز البياني وليس كلام الله فيما سواه – من التوراة والإنجيل والأحاديث القدسية وغيرها – بمعجز من ناحية النظم وإن كان معجزا فيما يخبر عنه من المغيبات لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع به التحدي .

دور الإعجاز في انتشار الإسلام :

لم ينتشر على سطح الأرض دين بالسرعة التي انتشر فيها دين سيدنا محمد ﷺ سواء كان دينا سماويا أو أرضيا ، ففي مدة لا تتجاوز الربع قرن من الزمن انتشر الإسلام في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ثم تتابعت الفتوحات بعد ذلك إلى أن وصلت إلى حدود الصين شرقا وجبال البرنس في فرنسا غربا كل ذلك بسبب أناس انطلقوا بتأثير القرآن فيهم ففتحوا البلاد ودوخوا العباد حتى انتشر الصيت الإسلامي في كل أنحاء العالم ولقد كان تأثير القرآن في نشر الدعوة الإسلامية على جانبين :

الجانب الأول : فصاحة القرآن وبلاغته وروعة بيانه التي تسيطر على عقول الخاصة والعامة منهم فكانوا اتجاه ذلك على ثلاثة انقسامات : منهم من عرف الحق فآمن ، ومنهم من استكبر لكنه آمن بعد ذلك متأخرا ، ومنهم من عرف الحق ومات على إنكاره .

الجانب الثاني : هو موافقة الحقائق في عصرنا الراهن للقرآن الكريم الذي تحدث عنها قبل أربعة عشر قرنا من الزمن فزاد أهل الإسلام تمسكا بدينهم،وتعرف كثير من المثقفين الغرب إلى أن الإسلام حق من خلال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ومصداق ذلك قوله تعالى : { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } (٨) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) لسان العرب جـ٥ فصل العين المهملة ص ٣٦٩.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي جـ٢
(٣) إلا أن كتاب الجاحظ لم يصل إلينا إنما بقيت الإشارة إليه من خلال كتاباته وكتابات غيره
(٤) سورة الحجر الآية : ١٤ – ١٥
(٥) مباحث القرآن مصطفى مسلم ص ٣١ - ٣٥
(٦) القرآن يتحدى أحمد عزالدين عبدالله خلف الله ص٢٤٣
(٧) انظر كتاب مباحث في إ'جاز القرآن الكريم د. مصطفى مسلم
(٨) سورة فصلت الآية : ٥٣

---

[١] تفسير الطبري ٢١\٢٣.
[٢] فتح الباري ٧\١٩
[٣] تفسير الجواهر ج٨ص٣٠.
[٤] تفسير الجواهر ج١٠ص٦٥.
[٥] مقدمة إعجاز القرآن للرافعي ص٢٠.